

الفصل الأول

مناهج البحث

1- ما المنهج : يقدم المعجم الفلسفي تعريفاً للمنهج بأنه : " وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة ⁽¹⁾ . ويعرف " بتل " المنهج بصفة عامة على " أنه الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بها بصدد للكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها ⁽²⁾ .

أما المنهج العلمي Scientific Method فيمكن تعريفه بأنه : " تحليل منسق وتنظيم للمبادئ والعمليات العقلية والتجريبية التي توجه بالضرورة البحث العلمي، أو ما تؤوله بنية العلوم الخاصة " . والمنهج العلمي بهذا المعنى يستخدم أداة منهجية غاية في الأهمية وهي التحليل، لمجموعة المبادئ والأسس التي ينطلق منها أي بحث علمي، على أن يتسم هذا التحليل بصفات منطقية مثل الإتساق والضرورة، والتحليل لا يتوقف عند الإلمام بهذه المبادئ ولكنه يبحث من بينها عن الأكثر بساطة وضرورة ويحذف المتكرر أو المشتق من غيره من المبادئ . كما يمتد التحليل إلى مجموعة العمليات العقلية والتجريبية، فنحن نجري مجموعة من عمليات الإستنباط والاستدلال المنطقي والرياضي على ما توفر لدينا من معطيات، ونعود في إجراء ذلك إلى مجموعة من قواعد الاشتقاق ذات الطابع المنطقي الرياضي (العقلي)، ونحنكم بالإضافة إلى ذلك إلى التجريب عند الحكم على مجموعة من النتائج المشتقة بالصدق أو الكذب بمدى مطابقتها للواقع (التجريبي) . والمنهج العلمي يمكن أن يأخذ طابع العمومية عندما يشير إلى مجموعة من القواعد العامة التي تعمل طبقاً لها كل العلوم، ويمكن أن توجد مناهج نوعية تتعدد باختلاف العلوم والبناء المنطقي لكل علم ⁽³⁾ . وفي كل الحالات فإننا نهدف إلى تحصيل المعرفة العلمية رصيد العلم الحقيقي .

1 - مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي، مادة : منهج، ص: 195 .

2 - قاسم، د.محمد محمد : المدخل إلى المنهج البحث العلمي، ص:52، عزاه إلى :

Bittle,C.N.Logic, the Science of Correct thinking, P.270 .

3 - قاسم، د.محمد محمد : م.س، ص، ص: 53، 54، بتصريف:

ويشير استخدام المنهج العلمي - بصفة عامة - إلى عمليتين رئيسيتين، هما الاستقراء، والاستنباط، أو التحليل والتركيب، حيث يمكن النظر إلى الاستقراء على أنه تحليل ينتقل من المشخص إلى المجرد، من الظواهر إلى القانون العام، ومن الحالات التطبيقية لمبدأ إلى المبدأ ذاته، كما ينظر إلى الاستنباط على أنه انتقال من البسيط إلى المركب، من المبدأ إلى تطبيقات المبدأ، من الضروري إلى العرضي، من القانون العام إلى الحالات الفردية التي تتدرج تحته . نمثل بصفة مؤقتة لاستخدام المنهج الاستقرائي بالعلوم التجريبية، ونمثل لاستخدام المنهج الاستنباطي بالرياضيات التي تبدأ طبقاً لفكرة التركيب - بأفكار أساسية قليلة وبديهيات، ثم تشيد بالتدرج علماً أكثر تركيباً دون استعانة بملاحظة أو تجربة . كما يمكن القول بأن النسق الاستنباطي يتلاءم والكتب المدرسية بينما المعمل هو المكان الطبيعي للعمليات الاستقرائية⁽¹⁾ . وغني عن البيان أن العلوم الطبيعية لا تعرف هذا الفصل بين ما هو استقرائي واستنباطي، وإنما أوردناه على سبيل الشرح والتفسير، وخاصة أن هذا الكتاب مؤلف للطلاب في المرحلة الجامعية الأولى . والأحرى أن العلوم الطبيعية، بل وأغلب العلوم، تستخدم المنهج العلمي بشقيه الاستنباطي والاستقرائي، التحليلي والتركيب معاً عند دراسة أي ظاهرة .

كان هذا وصفاً عاماً للمنهج العلمي وأما فوائده فتتمثل في أنه " يمنح السيطرة على الطبيعة، كما يمنح القدرة على التكيف معها وبما يلائمها، وأن نجاحنا في هذين الأمرين هو ما أسبغ على العلم مكانته " فلم يعد العلم أو المعرفة العلمية نوعاً من التأمل الحالم يقوم به العالم نحو الطبيعة، بل أصبح للعالم نوعاً من السيطرة باللغة القوة بقصد تغيير البيئة إلى الأفضل، إنه انتقال من التأمل إلى التحكم، لكن نعود فنسأل : هل تستخدم العلوم جميعاً منهجاً واحداً، أم أن هناك مناهج تتعدد بتعدد العلوم ؟ وإن تعددت المناهج، فهل ثمة تمايز وانفصال بينها، أم أنه يمكن حدوث تداخل وتعاون بين أكثر من منهج . لنحاول التعرف على المناهج بالتعرف أولاً على " علم المناهج " .

2- علم المناهج : كلمة Methodology أي علم المناهج من وضع الفيلسوف الألماني " كانت " الذي قسم المنطق إلى قسمين : قسم يتناول شروط المعرفة الصحيحة، وقسم يحدد الشكل العام أو الطريقة التي يتكون بها أي علم . والقسم الثاني هو ما يشكل علم

¹ - قاسم، د. محمد محمد : م.س، ص: 55، عزاه إلى : Bittle C.N. , cit. , PP. 270-271

المناهج . ويعني النظر إلى علم المناهج على أنه فرع من المنطق أن نطبق مبادئ وعمليات المنطق على الموضوعات الخاصة بالعلوم المختلفة . ومن ثم يعد علم المناهج بمثابة الجنس الذي تدرج تحته المناهج النوعية للعلوم الخاصة . ويتم هذا القول إن طبقنا أحد مفاهيم المنطق (التعريف والتصنيف) على علم المناهج نفسه، أما إن نظرنا إلى بيئة العلوم الخاصة بغرض تحديد المنهج الملائم لكل منها، فإننا ندرِك حينئذٍ فحوى علم المناهج بصفة عامة .

وعلى أي حال، علينا عند تعيين بنية أي علم أن نضع قي الاعتبار النقاط التالية:

- تحديد موضوع كل علم تحديداً نوعياً دقيقاً .
- مجرى هذه العلوم خلال تطورها .
- تحديد نمط القضايا والتعميمات التي يتضمنها كل علم .
- الأسس الفلسفية أو الفروض التي يقوم عليها هذا العلم .
- علاقة هذا العلم ببقية العلوم، مع تحديد تطبيقاته .

والنقطتان الأخيرتان على جانب كبير من الأهمية حيث أنهما يحددان طبيعة المنهج النوعي الذي يقدم على استخدامه في علم ما طبقاً لطبيعة افتراضات هذا العلم وأهدافه . ويكشف وجود اختلافات بين موضوعات العلوم عن سبب اختيار أحد النماذج الرئيسية لمناهج العلوم دون نموذج آخر . وإن كانت هذه النماذج لا يعمل الواحد منها بمعزل عن المنهج الآخر بالضرورة، بل قد ينشأ تداخل عند استخدامها ولو بصورة جزئية . ومعنى ذلك أن تعيق وجوه الاختلاف بين مناهج العلوم تبعاً لاختلافها يعد الأمر غير منطقي، ذلك أن وراء هذه المناهج كلها وحدة العقل الإنساني . ومثال على ذلك (" أننا لا نستطيع أن نفصل بين المنهج الرياضي والمنهج التجريبي بالنسبة إلى الرياضيات أو إلى العلوم الطبيعية، فكل علم من هذه العلوم - أو ينتمي إليها - يلجأ إلى المنهجين معاً في معظم عملياته - فالرياضة تعتمد على المنهج التجريبي إلى جانب اعتمادها على المنهج الرياضي (الاستدلالي) . وأي علم من العلوم الطبيعية لابد أن يلجأ حالياً إلى المنهج الرياضي في إحدى مراحلها على الأقل " .

3_ أنواع المناهج : وتنقسم المناهج إلى أنواع، ويرتبط هذا التقسيم بطبيعة البحث في كل علم، وأدوات هذا البحث، والغاية التي نتوخاها منه . نعرض هنا لستة مناهج رئيسية من بينها، وهي :

1- المناهج العقلية : Rational Methods (الفلسفية) : ولا تعني هذه التسمية أن ما يندرج تحتها كل المناهج العقلية وأن ما عداها من مناهج لا يستخدم العقل، بل المقصود بكونها Rational اعتمادها على إعمال الذهن والارتكان إلى التأمل على تفاوت في الدرجة فيما بينها تستخدم العلوم التأملية هذا النوع من المناهج . وقد قدمت لنا الفلسفة مجموعة من أساليب المنهجية في إطار ما يسمى " مناهج البحث الفلسفي " هي (1) :

أ- المنهج التحليل السقراطي :- ويعتمد على طرح الأسئلة وتصنيف الإجابات ويهدف إلى التوصل إلى الماهيات .

ب- المنهج التركيبي : قال به أفلاطون وأرسطو ومفكرون العصور الوسطى، ويتضمن عرضاً برهانياً بالعلاقة العلية بين الفكر والوجود .

ج- منهج التنسك : ويعني بممارسة التطهر على المستويين الأخلاقي والذهني، يؤدي إلى استتارة العقل، نادى به أفلاطون وأوغسطين وبعض المتصوفة .

د- المنهج النفسي : ويعني بالبحث في أصول الأفكار، استخدمه " ديكرت " وأتباعه، كما استخدمه التجريبيون الإنجليز .

هـ- المنهج النقدي " الترانسدننتلي " : قال به " كانت " ويهتم بتحليل شروط قيان المعرفة وحدودها .

و- المنهج الجدلي : ويتأسس على التسليم بفكرة، ثم التسليم بنقيضها، والتسليم ثالثاً بالمركب بينهما، وقد أقام هذا المنهج أصحاب المنهج الهيجلي والقائلين بالجدلية الجدلية .

ز- المذهب الحدسي : قال به " برجسون " وينادي بالإدراك المباشر للواقع عندما يمتزج الشعور بعملية التغير والضرورة إمتزاجاً تاماً .

ح- منهج التدبر والاستبطان الميتافيزيقي : ويهدف إلى إنماء الحقائق والقيم الكامنة بالإنسان، حتى تصل به إلى الله .

1 - د. محمد محمد قاسم : م.س . ص : 57 .

ط- منهج الإصطفاء : وهو منهج نقدي تاريخي، ويعني بالانتخاب المقصود والفعال، قال به "شيشرون" و "سواريز" و "كوزان" .

ي- المنهج الوضعي : كما هو عند "كونت" و "سبنسر" والتجريبيين المناطقة، ويحاول أن يطبق الإجراءات الدقيقة للعلوم الوضعية على الفلسفة .

2- المنهج البديهي (الاستنباطي) : **The Axiomatic Method** : ويستخدم في العلوم النظرية والرياضيات من بينها على وجه الخصوص؛ ويستند الاستنباط إلى مجموعة من الحدود الأولية والتعريفات والبديهيات والمصادر، وينقل منها - في إطار مجموعة من قواعد الاشتقاق الصارمة - إلى ما يترتب عنا من نتائج أو نظريات .
تتعلق التعريفات بتصورات خاصة بكل عالم، ففي الهندسة نعني بتحديد معاني حدود كالنقطة والخط، وفي علم الحساب نعني بتحديد معاني كالعدد الصحيح والإضافة والنقصان ... الخ أما البديهيات فهي قضايا واضحة بذاتها لا يبرهن عليها، ولها خواص ثلاث : الوضوح النفسي، الأولية المنطقية الصورية . أما المصادر فإننا نسلم بها رغم أنها ليست واضحة وضوح البديهيات وإن كنا نستنتج منها نتائج دون الوقوع في تناقض .
تشكل مجموعة التصورات السابقة النسق الاستنباطي الذي إن اتسم بضرورة تربط بين مقدماته ونتائجه، إلا أنه لا يتسم بالعمومية، حيث لا يتحتم على العلم (الرياضيات مثلاً) أن يكون له نسق استنباطي بذاته لا يتغير، بل يمكن أن تتعدد الأنساق داخل العلم الواحد تعدد مجموعة الافتراضات الأولية التي ينطلق منها، ولا بد للنسق في هذه الحالة أن تتوفر فيه شروط منها : استقلال مقدماته وبساطتها . بالإضافة إلى كفاية عناصره المكونة للبرهنة على قضايا العلم موضوع البحث، وعدم انطوائه على تناقض داخلي .

3- المنهج الاستقرائي **The Inductive Method** : هو منهج البحث في العلوم التجريبية كالطبيعة والكيمياء والأحياء، كما تستخدمه بعض العلوم الإنسانية كالتاريخ والنفس والاجتماع . يهدف إلى الكشف عن لطراد الظواهر وانطوائها تحت قوانين بعينها. ويستلزم هذا المنهج تطبيقاً دقيقاً واعياً لمجموعة من الخطوات والإجراءات يمكن تصنيفها في ثلاث مراحل هي مرحلة الملاحظة والتجربة ومرحلة تكوين الفروض العلمية ومرحلة تحقيقها . أما الإجراءات فهي :

1- الملاحظة وأدواتها المختلفة وتصنيف المشاهدات في ضوء التحليل والمقارنة .

- 2- ثم اختيار الوقائع المتشابهة. وضع فروق تدور حول تعيين العلة أو القانون .
- 3- التحقق باستخدام القواعد التجريبية .
- 4- الاستبطاط وما يتعلق به من برهان وتفسير .
- 5- ترتيب النتائج .
- 6- صيغة القانون العلمي أو تكوين النظرية المناسبة في قضية .

وتتطوي هذه المراحل والخطوات الاستقرائية على الاعتقاد بمبادئ مثل مبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة ومبدأ العلية، ويمكن أن نخضع لتقويم فلسفة العلم ومناقشتها، كما نخضع لنفس التقويم أدوات منهجية أخرى مثل الملاحظة طبيعتها وتأثيرها بالنظريات السابقة التي يعتقد بها الباحث، الفروض وشروط تكوينها بصورة علمية، مشكلة الاستقراء والحلول المتاحة كلها، كما أن موقف العلماء المعاصرين من مراحل الاستقراء، وأهميته كمنهج، يكشف إلى حد بعيد مدى ما يمكن أن تسهم به فلسفة العلم في تطوير المنهج .

4- المنهج الوصفي **The Descriptive Method** : وتستخدمه العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، ويعتمد على الملاحظة بأنواعها بالإضافة إلى عمليات التصنيف والإحصاء مع بيان وتفسير تلك العمليات . وبعد المنهج الوصفي أكثر مناهج البحث ملائمة للوقائع الاجتماعية كسبيل لفهم ظواهره واستخلاص سماته . ويأتي على مرحلتين⁽¹⁾. الأولى مرحلة الاستكشاف والصياغة التي تحتوي بدورها على ثلاث خطوات هي تلخيص تراث العلوم الاجتماعية فيما يتعلق بموضوع البحث، والاستناد إلى ذوي الخبرة العلمية والعملية بموضوع الدراسة، ثم تحليل بعض الحالات التي تزيد من استبصارنا بالمشكلة وتلقي الضوء عليها أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التشخيص والوصف وذلك بتحليل البيانات والمعلومات التي تم جمعها تحليلاً يؤدي إلى اكتشاف العلاقة بين المتغيرات وتقديم تفسير ملائم لها .

5- المنهج التاريخي **The Historical Method** : هو منهج تعول عليه العلوم التي تدرس الماضي بسجلاته ووثائقه ويعتمد هذا المنهج على الجمع والانتقاء والتصنيف وتأويل الوقائع . ومن ثم كان العمل الأول للمؤرخ هو الاهتمام إلى الواقعة التي اختفت في الماضي والتثبت منها، إذ أنها نقطة البدء في المنهج التاريخي نتعقبها في الوثيقة .

¹ - د. محمد علي محمد : علم الاجتماع والمنهج العلمي، ص: 186 .

وتناول الوثائق بالدراسة والتحليل عمل نقدي بالدرجة الأولى، وللقدر التاريخي مرحلتان (1) :

1- التثبيت من صحة الوثيقة والاستعانة بمجموعة من العلوم المساعدة .

2- التثبيت من الواقعة في إطار نقد وثائق لا إرادية تدور حولها .

أما العمل الثاني للمؤرخ فهو عملية التركيب التاريخي حين نمج الوقائع في مجموع حضاري شامل يدور في نفس الوقت في سياق زمني واجد .

وهنا يثير التأريخ والعمل بالمنهج التاريخي نقاشاً حول بعض التصورات التي تهتم بها فلسفة العالم مثل : فكرة اتصال التاريخ، منطق التاريخ، الفهم والتفسير لما بين الوقائع من وجوه للشبه أو الاختلاف، السبب والنتيجة، الحتمية التاريخية، مدى تحقق الموضوعية في دراسة التاريخ، وضعية التاريخ .

6- المنهج النفسي **The Psychological Method** : وتستخدمه كل العلوم التي تجعل من السلوك الإنساني وتطوره موضوعاً لها. ولا يعتمد المنهج هنا على التحليل الاستبطاني وحده وإنما يستند إلى إجراء التجارب (2) . ودراسات علم النفس وفروعه تندرج تحت ما يسمى بعلم النفس التجريبي الذي أدخل مناهج الملاحظة المدعمة بالآلات العلمية كما تمارسها العلوم الطبيعية . كما تكتمل صورة المنهج النفسي بالإشارة إلى المنهج المقارن- بالإضافة إلى المنهج التجريبي - الذي يقوم بمقارنات، إما بين نماذج مختلفة من الأفراد، أو بين أفراد ينتمون إلى مجتمعات أو حضارات متباينة (3) .

وتميل المناهج النفسية إلى تقصي الأسباب التي تقف وراء الظواهر النفسية، وتسلم بالحتمية حتى تصبح مناهج علمية من الوجهة العملية، وإن كانت الحتمية لا تظهر في السلوك الإنساني إلا إذا غلبت عليه الآلية وكنا نقيس ظواهر ذات أساس فسيولوجي، أما الإنسان حر الإرادة المتحرر من الشروط الفسيولوجية والاجتماعية فإنه لا ينطوي تحت مقولة الحتمية، وهنا تنشأ الحاجة لفلسفة العلوم لتناقش الحتمية، السببية، الحرية (4) ... إلخ .

1 - بول موي : المنطق وفلسفة العلوم، صص : 256، 257 .

2 - محمد محمد قاسم : م.س، ص : 61، عزاه إلى : Runes , op. cit. , P. 197 .

3 - بول موي : م.س، ص- ص : 252- 254 . بتصرف

4 - محمد محمد قاسم : م.س . ص : 63 .

4- في الفلسفة والمنهج : ما زال العلم محور حديثنا فلسفة ومنهاجاً، و إذا كنا نسلم بداية أن الفلسفة ليس من حقها أن تزعم امتلاك ناصية الحق أو الحقيقة المطلقة، فإن علينا أن نؤكد أيضاً هذا القول على العلم والفلسفة بصفة عامة، ويمكن أن ينسحب أيضاً على أدوات ومناهج كل منهما . وإن اتخذنا " مناهج العلوم " أو " علم المناهج " مجالاً لتطبيق هذه المقولة، وجدنا أن هذا العلم يدرس المناهج وارتباطها بالعلوم المختلفة من جهة، كما يدرس السبل التي يسلكها العلماء بهدف الاقتراب من اليقين في ميدان تخصصهم، وقد زعم العلماء أن علم المناهج قد تكون على أيديهم داخل المعامل، بحجة أنهم لم يدخلوا إلى معاملهم مزودين بقواعد عامة يؤدي اتباعها إلى الكشف عن الحقائق، وإنما كان محك ذلك هو الاتصال بالوقائع وممارسة التجارب العملية . ويضيفون إلى حجتهم السابقة القول بأنه ينبغي على العلم في مرحلة تكوينه ألا يسبقه مذهب فلسفي يخضع له العالم في إجراء بحوثه وبناء على ما تقدم رأى أغلب العلماء أنه ليس للمنطقي أن يفرض قواعد بعينها على العالم المتخصص.

وينبئنا الواقع العلمي بما يخالف هذا الزعم، حيث أن العالم المتخصص في نطاق محدود لا يستطيع أن يتبين العلاقات والروابط التي تنشأ بين النطاقات المختلفة للعلم وما ينشأ من تشابك بين المناهج المختلفة وتداخلها عند دراسة موضوع واحد . وهنا يبرز دور عالم المنطق عندما يحاول أن يضع صورة عامة للمناهج التي يتبعها العقل الإنساني عند بحثه عن الحقيقة العلمية⁽¹⁾ . فهو وحده القادر على الإلمام بمختلف ميادين العلم في نظرة واحدة شاملة تهيئ له أن يدرك الملامح العامة والخصائص الكلية المشتركة بين مناهج المتبعة في فروع العلم المتعددة⁽²⁾ .

وفي رأينا أن الأقرب إلى الصواب فيما يتعلق بنشأة علم المناهج وتطوره، أن الأمر يبدأ عندما يقدم لنا العالم المتخصص تقريراً مفصلاً عن الخطوات التي اجتازها عند إعداده بحثاً في نطاق تخصصه . ثم يأتي عالم يتسم بسعة في الأفق وشمول في المعلومات ليحاول أن يحدد لنا الإطار المنهجي الذي اتبعه الباحث المتخصص، وموضع هذا الإطار من المناهج المعروفة . ويأتي دور عالم المنطق في نهاية الأمر ليصنف المناهج المتاحة أمامه، بحثاً عن العلاقة بينها والخصائص العقلية للأنساق، مع صياغة

1 - د. محمد محمد قاسم : م.س . ص، ص : 92 - 93 .

2 - د. عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي، ص : 10 .

النتائج العلمية التي سبق أن توصل إليها العلماء في إطار مذهبي للبحث عن الحقيقة . ومعنى ذلك أن الفلاسفة بصفة عامة والمناطق بوجه خاص لا ينتقدون الإجراءات التي قام بها العلماء بصدد الكشف عن قوانين ونظريات، فتلك حلبة العلماء دون منازع، وإنما يتناولون المناهج التي التزم بها العلماء والتصورات والمصادر في مسيرتهم نحو كشف العلاقة بين الوقائع والقوانين والنظريات . إن المنطقي يصوغ قواعد ويقدم توجيهات عامة يدور معظمها حول شروط سلامة الاستنتاج للاهتداء بها أثناء البحث العلمي .

أما الدور الأهم لفيلسوف العلم أو لعالم المناهج أو للمنطقي، فهو أن يناقش الفروض التي تقوم عليها العلوم المختلفة ويوازن بينها ويضعها موضع الفحص والاختبار، مستنداً في ذلك إلى إلمام كافٍ بالعلوم التي يوازن بينها، وقدرة كافية على تحليل ما تثيره هذه العلوم من إشكالات ومحاولة وضع حلول لها⁽¹⁾ . ويكشف " د. عبد الغفار مكاي " عن أهمية تدخل فيلسوف العلم بقوله : " ... ذلك أن مشكلات الأسس والمسلمات والفروض التي تعتمد عليها هذه العلوم والمناهج التي تسيّر عليها، لا يمكن معالجتها بهذه المناهج نفسها، وإلا وقعنا في الدور : فمشكلة تطبيق منهج معين لا يمكن مناقشتها عن طريق هذا المنهج بنفسه . إذ يستحيل مثلاً أن نبرهن على خلو نسق منطقي ورياضي من التناقض بوسائل هذا النسق نفسه .. كما يستحيل بغير نظرية فلسفية أن نميز مناهج المستويات اللغوية المختلفة في علم الدلالات والمعاني (السيمياء نظيقاً)، كأن نطبق المنهج على موضوعات علمية ثم نطبقه على المناهج نفسها في مستوى أعلى . وهذا يؤكد ما سبق قوله من أن العلماء لا يمكنهم في مسائل الأسس والمناهج أن يستغنوا عن النقد الفلسفي⁽²⁾ .

وحقيقة الأمر أن لا غنى للعلماء عن الفلاسفة، ولا غنى للفلاسفة عن العلماء، وقد برزت هذه الحقيقة مع نشأة جيل من العلماء وفلاسفة العلم المعاصرين يجمع بين خبرة العلماء ومنطق الفلاسفة ومنهم : " أنتستين " و " رسل " و " كارل بوبر " وغيرهم .

أما الصورة العامة لمنهج العلم فلم تعد تتسم بالاستقرار أو الثبات كما كان يعتقد . ذلك لأن المعرفة العلمية نامية بطبيعتها ومتطورة، ومن ثم فإن أدوات تحصيل هذه المعرفة من أدوات ومناهج يطرأ عليها تحسين وتعديل بين حين وآخر . وننقل رأي " هانز

1 - د. محمد محمد قاسم : م. س. ص. ص : 63-64 .
2 - د. عبد الغفار مكاي : لم الفلسفة ؟ ص : 103 .

ريشيتباخ " في كتابه نشأة الفلسفة العلمية عن عبد الغفار مكاوي، حيث يقول موضعاً هذه النقطة الهامة . " والواقع، صورة المنهج العلمي كما ترسمها الفلسفة العلمية الحديثة مختلفة كل الاختلاف عن المفاهيم التقليدية " العقلية والمثالية " فقد اختفى المثل الأعلى لعالم يخضع مساره لقواعد دقيقة، أو لكون متحدد مقدماً، يدور كما تدور الساعة المضبوطة، واختفى المثل الأعلى للعالم الذي يعرف الحقيقة المطلقة، وأتضح أن أحداث الطبيعة أشبه برمي الزهر منها بدوران النجوم في أفلاكها . فهي خاضعة للقوانين الاحتمالية، لا للعلية، أما العالم فهو أشبه بالمقامر منه بالنبي . فهو لا يستطيع أن ينبئك إلا بأفضل ترجيحاته، ولكنه لا يعرف مقدماً أبداً إن كانت هذه الترجيحات ستتحقق . ولكنه مع ذلك أفضل من ذلك الذي يجلس أمام المائدة الخضراء، لأن مناهجه الإحصائية أفضل، والهدف الذي يسعى إليه أسمى بكثير، وهو التنبؤ برميات الزهر الكونية . فإذا ما سئل عن أسباب إتياعه لمناهجه، وعن الأساس الذي يبني تنبؤاته عليه، لا يكن في وسعه أن يجيب بأن لديه معرفة بالمستقبل تتصف باليقين المطلق، بل أنه يستطيع فقط أن يقدم أفضل ترجيحاته . ولكن في وسعه أن يثبت أن هذه بالفعل هي أفضل الترجيحات، وأن القول بها أفضل ما يمكن عمله . و إذا كان المرء يعمل أفضل ما يمكن عمله، فهل يستطيع أحد أن يطلب منه المزيد ؟ " .

رغم أن للفلسفة هذا التأثير المباشر في تطور ونمو المعرفة العلمية إلا أن هناك من ينظر إلى الحقيقة العلمية مستقلة عن الحقيقة الفلسفية وهناك من يجعل إحداهما أساس عمل الثانية، وهناك ثالثاً من يزواج بين الحقيقتين بوصفهم نتاجاً طبيعياً لعقل الإنسان، فلنستعرض هذه الاتجاهات .

5- بين المنهجية والمنهج

1- تعريف المنهجية : المنهجية مصطلح محدث راج في الدراسات العليا خاصة بمعنى العلم الذي يُبين كيف يجب أن يقوم الباحث ببحثه، أو هي الطريقة التي يجب أن يسلكها الباحث منذ عزمه على البحث وتحديد موضوع بحثه حتى الانتهاء منه، أو لنقل هي مجموعة الإرشادات والوسائل والتقنيات التي تساعده في بحثه .

والغرض من المنهجية تعليم الطالب البحث العلمي وتنمية الروح العلمية فيه، وتسهيل مهمته في البحث، وتجنبيه ضياع أعباءه هدراً وموضوعها معايير البحث

والباحث، واختيار الأستاذ المشرف، والتقميش، وكيفية كتابة البحث، والتحشية (كتابة الحواشي)، ووضع الفهارس⁽¹⁾ ... الخ .

2- تعريف المنهج : جاء في " لسان العرب " : " طريق نَهَجٌ : بَيَّن واضح ... وَمَنَهَجَ الطريق وضحه، والمنهاج كالمنهج، وفي التنزيل : " لَكُلُّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنَاجِياً " (2) .

والمنهاج : الطريق الواضح . والنهج : الطريق المستقيم⁽³⁾ . ونميل إلى التمييز بين " المنهج " و " المنهجية " استناداً إلى الاعتبارات التالية :

1- إن " المناهج " وصف لأعمال العلماء المتقدمين وطرائق بحوثهم وأساليبهم ومصطلحاتهم، فالعلوم والبحث العلمي سابقة للمناهج، أمّا المنهجية فمجموعة معايير وتقنيات ووسائل يجب إتباعها قبل البحث وفي أثناءه .

2- إنّ المنهجية، كالمنهج، وصفية لأنها تُبين كيف يقوم الباحثون بأبحاثهم لكنها تختلف عنه في أنها معيارية في الوقت نفسه، لأنها تقدم للباحث مجموعة الوسائل والتقنيات الواجب اتباعها .

3- إن مناهج الدراسة تختلف من علم إلى آخر، فلأدب مناهجه، وكذلك للغة، وللتاريخ، والبيولوجيا، والرياضيات ... أمّا المنهجية فواحدة عموماً .

4- إن المناهج تُطرح عادةً للنقد والتقويم، فيُفضّل ما لها وما عليها، وأياً الأولى بالإتباع، وما المنهج المناسب لهذا النوع من الدراسات .. أما المنهجية، فمعايير وتقنيات يجب التزامها لتوفير الجهد، وعدم إضاعة الوقت، وتسديد الخطى على الطريق العلمي الصحيح .

5- إن المناهج مرتبطة بالمنطق وطرق الاستدلال والاستنتاج، ولذلك فهي تتطور وتتعدل من حين إلى آخر، أما المنهجية فأضحّت، عموماً، جملة قواعد ثابتة⁽⁴⁾ .

ولمزيد من التوضيح حول هذه الفروقات بين " المنهجية " و " المناهج " نعرض فيما يلي مناهج البحث في اللغة والأدب، ليقارنها القارئ مع محتويات كتابنا هذا، أي مع ما تشمله مادة " المنهجية " .

1 - يعقوب، إميل : كيف تكتب بحثاً . ص، ص : 9، 10 .

2 - سورة المائدة : 48 .

3 - ابن منظور : لسان العرب . مادة : (ن ه ج) .

4 - إميل يعقوب : م.س . ص.ص : 10-11 .

3- مناهج البحث في اللغة والأدب : إن أهم مناهج البحث في اللغة المنهجان : الوصفي التقريري، والمعيارى التقليدي .

أ- المنهج الوصفي التقريري : يعتبر هذا المنهج الأكثر أهمية وموضوعية، والأكثر جذباً للانتباه والدراسة في العصر الحديث . وجاءت تسميته ردة فعل على المنهج التاريخي التعليلي المعيارى القديم، وقد تطور تطوراً سريعاً في السنوات الأخيرة . وهو ينطلق من الملاحظات إلى الفرضيات على النحو التالي :

1- ملاحظة الأحداث والمعطيات اللغوية .

2- صياغة بعض التعليمات للأحداث المتشابهة .

3- صياغة افتراضات تُفسر هذه الأحداث على ضوء التعليمات السابقة .

4- التأكد من ملاءمة هذه الافتراضات للواقع اللغوي .

5- بناء نظرية قائمة على هذه الافتراضات .

6- اعتماد النظرية السابقة لوصف قضايا اللغة وتفسيرها .

أما الخصائص التي أتم بها، فأهمها ما يلي :

1- اعتماد معايير واحدة في تحليل التنظيم اللغوي .

2- اعتماد القواعد الأكثر وضوحاً وبسيطاً في تبيان عناصر اللغة، ووصفها،

وتفسيرها .

3- شمول المستويات اللغوية (الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية) كافة،

واستنفاد القضايا اللغوية بالبحث .

4- اعتماد الموضوعية للتحقق من الافتراضات اللغوية . لذلك لا يتبنى المنهج

الوصفي هذه الافتراضات، إلا بعد إخضاعها للتجربة والتدقيق .

5- تناول اللغة على أنها موضوع من موضوعات الوصف، كالتشريح، لا

مجموعة من القواعد كالقانون . فالباحث في تشريح الجسم الإنساني لا يقول : يجب أن

يكون العظم الفلاني بهذا الموضع، أو يجب أن يكون العضو الفلاني بهذا الحجم أو الوزن

أو الصورة، إنما يشرح شرحاً وصفيّاً موضوعياً ما يقع تحت نظره، فعلى الباحث في

اللغة أن يذكر خصائصها دون أن يدّعي أن هذا القول جائز، وذلك لا يجوز، لأن همه

وصف الحقائق لا فرض القواعد .

6- اختيار مرحلة بعينها لوصفها وصفاً استقرائياً، واتخاذ النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء، وتسميتها قواعد . فالقاعدة، في الدراسة الوصفية، ليست معياراً، وإنما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية .

ب- المنهج المعياري للتقليدي : ساد هذا المنهج الدراسات اللغوية القديمة - وبخاصة في اللغة العربية - منذ نشأته في اليونان، على أيام أرسطو، حتى أواخر القرن الماضي . وكانت بداية الدراسة، عند نحائنا العرب القدماء، محاولة جديّة لإنشاء منهج وصفي لدراسة اللغة، يقوم على جمعها وروايتها، ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها للخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم . ولكن منهجهم سرعان ما تحول إلى منهج معياري صارخ، وتظهر هذه للمعيارية الصارخة في النواحي التالية :

1- إنَّ السُّنْحَاةَ، بعد أن استقرأوا اللغة استقراءً ناقصاً، واستتبطنوا بعض القواعد النحوية، عمدوا إلى فرض هذه القواعد على اللغة، بدل أن يخضعوها هي نفسها للغة . فأخضعوا الصواب والخطأ، في الاستعمال، لمجموعة من القواعد فرضوها على اللغة .

وكانوا، كلما دهمتهم الأمثلة التي تعارضهم، لجأوا إلى تأويلها أو وصفها بأنها شاذة أو نادرة، أم أن صاحبها قد أخطأ، وهكذا كانوا يذكرون للقاعدة، ثم يتبعونها بأمثلة خارجة عليها، متتولين إياها بالتأويل الناقر والتمحل البعيد، كي تستقيم مع قواعدهم، فإن أعيابهم التأويل والتمحل، حكموا بالقلّة أو الشذوذ أو الخطأ . والغريب العجيب أن القرآن الكريم نفسه لم يسلم من تمحلات النحويين وتأويلاتهم وتخريجاتهم، مع إجماعهم على أنه أفصح كلام عربي على الإطلاق، وأنه في ذروة البلاغة⁽¹⁾ .

وغني عن البيان، أن المنهج الوصفي، لا يتبنى الافتراضات أو القواعد، إلا بعد إخضاعها للتجربة والتدقيق، وأن هم الباحث فيه، أن يشرح ما يقع تحت نظره وصفاً موضوعياً، دون أن يدعي أن هذا القول جائز وذلك لا يجوز، لأن همه وصف اللغة لا فرض القواعد، وعندنا أن القول بالجائز والخطأ والصواب، أمر ضروري في التعليم، فلولا تفسد اللغة، ولكن يجب أولاً استقراء اللغة استقراءً كاملاً، ثم إخضاع القواعد للغة، لا العكس . وذلك بغية التثبيت من سلامة هذه القواعد .

¹ - لميل يعقوب : م، ص : 11-14 . بتصريف .

2- إن النحاة العرب، و إن كانوا قد شملوا بدراساتهم مستويات اللغة كافة (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)، قد خلطوا هذه المستويات خلطاً شديداً، كما نرى في المؤلفات النحوية الباكورة والمتأخرة على حد سواء . أما المنهج الوصفي، فيدرس هذه المستويات كلاً على حدة⁽¹⁾ .

3- عمد النحاة العرب إلى لهجات متعددة، فخلطوا بينها محاولين إيجاد نحو عام لها جميعاً. والمنهج الوصفي يدرس كل لهجة على حدة . ثم يقعدّها من ناحية الصوت والصرف والنحو والدلالة .

4- إن المفكرين العرب افتتنوا بالمنطق الأرسطي، إذ اعتبروه سمة الثقافة، وراحوا يطبقونه على علومهم، وبخاصة على علم النحو، حتى أصبح كلامهم في النحو أقرب إلى الفلسفة منه إلى النحو نفسه⁽²⁾ .

هناك عدداً من مناهج البحث يمكن استخدامها وتجريبها في البحث الأدبي، منها :

1- المنهج التاريخي : يقوم هذا المنهج على قسمة الأدب العربي إلى عصوره السبعة قسمةً متطابقة مع العصور السياسية . ولا شك أن بين الأدب والتاريخ صلات ووشائج متينة، وخاصة في الأدب العربي، لكن الأدب لا يخضع لتقلب الحكم المفاجئ، بل يتطلب زماناً طويلاً لتخميره وتغييره . وليس هناك سور حديدي بين أدب وأدب أو بين عصر وعصر . وهذا المنهج يهمل أثر الأدب في السياسة وأثر البيئة الجغرافية، والنوازع الفردية، والصفات النفسية في الأدب نفسه .

2- منهج الفنون الأدبية : يقوم على دراسة الأدب العربي دراسة تعتمد على تصنيف نتاجه في فنون أو أنواع أدبية، وعلى تتبع هذه الأنواع والفنون عبر الزمن لمعرفة تطورها وأثر العوامل الإقليمية فيها، أثر اللاحق بالسابق من الأدباء، والموازنة بين هؤلاء، وبين أساليبهم . لكن هذا المنهج يهمل صاحب النص الأدبي، مجتزئاً نتاجه إلى الفنون الأدبية المختلفة، كما يصعب تطبيقه على القصيدة العربية التي لم تعرف وحدة الموضوع بل وحدة البيت .

3- منهج الجنس : يدعو هذا المنهج إلى دراسة الأدب تبعاً لأجناس الأدباء . وهذا المنهج غير صالح لدراسة الأدب في المجتمع العربي القائم على خليط من الأجناس

1 - م.س.ن، ص : 14 .

2 - م.س.ن، ص : 27 .

المختلفة . ومن التعسف تصنيف أدباء العربية حسب جنسهم (عرب، فرس، روم ...)، نظراً لامتزاج الدماء، واختلاط الثقافات، والوحدة المادية والثقافية والعضوية التي خلقها الإسلام في المجتمع العربي .

4 - المنهج الثقافي : يدرس الأدب تبعاً للثقافة التي غلبت على الأدباء، فيدرس أدب الثقافة الفارسية، وأدب الذين اغتنوا منها، وأدب الثقافة العربية وأدب الذين تغنوا بها، وأدب الثقافة اليونانية وأدب الذين تمثلوا هذه الثقافة، وذلك كل على حدة . وقد انتقد هذا المنهج في أنه يهتم بالعناصر العقلية في الأدب دون عناصره العاطفية، كما أنه يهمل العنصر الفردي والناحية النفسية . وليست الثقافة وحدها هي التي تصوغ الأدب .

5- المنهج الفني : يدرس هذا المنهج الخصائص الفنية المشتركة بين الأدباء، مُنتقلاً من النطاق الفردي إلى النطاق العام، جامعاً بين الأدب والنقد من جهة، وبين الأدب والعلم من جهة أخرى، ومُصنفاً الأدباء حسب خصائصهم الفنية، لا حسب التطور الزمني أو غيره، إلى مدارس واتجاهات تتميز كل منها بجملة خصائص فنية .

6- المنهج الإقليمي : يدرس الأدب لا حسب الأنواع الأدبية، أو الأجناس، أو الثقافات، أو الخصائص الفنية، بل موزعاً بين الأقاليم، فيدرس الأدب العربي مثلاً في مصر، ثم في الشام، ثم في المغرب ... ولاشك في أثر البيئة الجغرافية في الأدب والأديب معاً، لكن هذا المنهج يهمل العناصر النفسية والذاتية والثقافية وغيرها من العوامل التي تؤثر تأثيراً فعالاً في نشأة الأدب ونمائه .

7 - المنهج الطبيعي : يُنكر هذا المذهب التنوع الشخصي، وكل ما يتصل بالذوق وأحكامه ويطبق على الأدباء جميعاً قوانين واحدة، وذلك كما تطبق قوانين الطبيعة على كل العناصر، وكل الجزئيات، وكل الكائنات، مسقطاً كل ما يمتاز به الأدباء من فردية ذاتية، محاولاً جعلهم كأنهم أشياء بيولوجية، مقسماً إياهم في فصائل تتشكل بحسب ما يقع عليها من مؤثرات خارجية (الجنس، البيئة، الزمان ...)، كما تتشكل فصائل الحيوان والنبات في الطبيعة .

8 - المنهج الاجتماعي : يصل هذا المنهج بين دراسة الأدب والدراسات الاجتماعية، إذ إن الأدب، في حقيقته، تعبير عن المجتمع، ولا يوجد أدب دون مجتمع ينبثق منه، كما يدرس الظواهر الاجتماعية في البيئة التي ينتمي إليها الأديب، وطبقته الاجتماعية، وما

عاش فيه من أوضاع اقتصادية . وقد أدى هذا المنهج إلى ظهور مقياس اجتماعي جديد هو مقياس الالتزام في الأدب، الذي يُقِيم الأدب بمقدار التزامه قضايا المجتمع ودفاعه عن الحق بكل أشكاله . ومع القول بـ " الالتزام " نشأ مذهب " الفن للفن " الذي يرى أن غاية الفن عامّة والأدب خاصّة هي ذاته، بغض النظر عما يطرحه من مسائل اجتماعية أو أخلاقية أو نحوها .

9 - المنهج النفسي : نشأ هذا المنهج مع (سيغ蒙德 فرويد) (1856-1939)، ونما على يد تلامذته ومع تطور علم النفس، حتى أصبحت دراسة الأدب والفن على ضوء علم النفس منهجاً رائجاً لدى الباحثين الغربيين، ثم ظهر ظهوراً لافتاً للنظر في السنوات الأخيرة في دراسة الأدب العربي . وأهم ما قال به هذا المنهج أن الفن إنما هو تنفيس عن عقْد جنسية أو كبت جنسي، وإنه في دراسة الأدب من دراسة " اللاشعور " الذي منه ينبع الصنيع الفني.

10 - المنهج الجمالي : يبحث في إدراكنا الجمال ومقاييسه وأحكامنا عليه، والعلل التي تثير فينا الشعور بالجمال عند هذا الأديب أو ذاك، وطبيعة الإبداع الأدبي، ومصدر الجمال في هذا الإبداع، وحقيقته، معايير، وقيمه، وصلته بمنشئه وبالمجتمع، وبالواقع، وبالمثال المطلق...

11 - المنهج الذاتي الموضوعي : يدعو هذا المنهج، إلى تذوق الآثار الأدبية، ثم إلى تصوير ووصف إحساسنا وانفعالنا بها، ومدى تأثيرها في قلوبنا وعقولنا . وهكذا تستحيل دراسة التاريخ الأدبي والآثار الأدبية دراسة ذاتية تأثرية تعتمد على التذوق الشخصي، دون الدخول في دراسة أحوال المجتمع، أو الوقوف عند شخصية الأديب، أو إقحام بحوث علوم الطبيعة، أو علم الاجتماع، أو علم النفس، أو الفلسفة الجمالية . فالمهم تحليل النص تحليلاً لغوياً ونحوياً وبلاغياً قائماً على التذوق الشخصي⁽¹⁾ .

¹ - م.س.ن. ص - ص : 29-32، بصرف .